

الدلالة السيكلوجية للنظرة

بقلم

زكريا إبراهيم بقطر

قد يعجب القارئ إذ يرانا نجعل من « النظرة » *le regard* موضوعاً لبحث سيكلوجي ؛ وربما يأخذ علينا البعض أننا نعدو نطاق الدراسة السيكلوجية ، لكي نحلق في سماء المجردات ، ونجول في ربوع الميتافيزيقا . بيد أننا نبادر ففرد على هذا الاعتراض بأن نقول إن علم النفس مهما حاول أن يستقل عن الفلسفة ، فإنه لا بد أن يجد نفسه مضطراً إلى الاستفادة من نظرات أهل الفكر الذين طالما غدوا الدراسات السيكلوجية بفلسفاتهم « المجردة » . وإذن فلا عجب أن نلتجئ في هذا البحث إلى فيلسوف عميق مثل جان بول سارتر ، فإن من المؤكد أن سارتر يمكن أن يعد باحثاً سيكلوجياً ممتازاً إلى جانب كونه فيلسوف الوجودية الأول في فرنسا^(١) . هذا فضلاً عن أن الدراسة السيكلوجية هي في جوهرها دراسة « إنسانية » ، فكل ما يمس التجربة الإنسانية في ناحية من نواحيها يمكن أن يعد من قبيل الدراسات السيكلوجية . وعلى كل حال فإن القارئ لا بد أن يكون قد لاحظ خلال تجربته اليومية ما للنظرة من دلالة سيكلوجية تستحق البحث ، خصوصاً وأن ما نسميه بالنظرة إنما هو معنى إنساني صرف .

والواقع أننا نريد أن نقرر أولاً وقبل كل شيء أن « النظرة » هي مما يميز الإنسان وحده دون سائر الحيوانات . وإذا كان الحيوان قد ينظر إليك ، فليس معنى هذا أنه يوجه إليك « نظرة » بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة . حقا إن صلة التعاطف التي قد توجد أحيانا بين الإنسان وبين طائفة خاصة من الحيوانات قد تسمح لنا أحيانا بأن نتحدث عن « نظرة » هذا الكلب إلى صاحبه أو « نظرة »

(١) يلاحظ أن سارتر قد ساءم في مجال الدراسات السيكلوجية بقسط وافر ، كما يظهر مثلا من بحوثه في التخيل ، ونظريته في الانفعال ، وما إلى ذلك ...

ذلك الحصان إلى مالكة (مثلاً) . ولكننا نشعر جميعاً بأن دلالة هذه النظرة الحيوانية إنما هي دلالة « إنسانية » يخلعها المرء على الحيوان . وقد يكون الأصل فيها مجرد « إسقاط » . . . أما النظرة الإنسانية فهي في صميمها دلالة سيكولوجية تعبر عن الوجود الإنساني الذي هو على حد تعبير سارتر « وجود بالنسبة إلى الآخرين »^(١) . L'être-pour-autrui فالنظرة دلالة إنسانية تكشف لنا عن موجود خاص يستطيع أن ينطق بالعينين قبل أن ينطق باللسان : وهذا الموجود هو الإنسان الذي يشعر بأن وجوده هو في عالم الآخرين .

إن المولود الحديث ليظل في شبه عزلة عن الوسط المحيط به . حتى إذا تمكن من أن يوجه نظره نحو والديه . فهناك تبدأ علاقته بالآخرين . أو بعبارة أخرى وجود الآخرين . فالحياة الاجتماعية الأولية تطفل إنما تبدأ في اللحظة التي يستطيع فيها أن يوجه إلى أمه « نظرة » تفهمها . فلا يعود وجوده مجرد « وجود لذات » être pour-soi . بل يصبح « وجوداً من أجل الغير » . وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول إن « النظرة » هي أساس علاقتنا بالآخرين . وهي لهذا دلالة سيكولوجية اجتماعية مثلها كمثل اللغة .

بيد أننا نلاحظ أن « النظرة » ليست مجرد قراءة للعينين . وإنما هي تعدو إدراكنا الحسي لموضوع معين هو هاتان العينان اللتان تنظران إلى . فأنا حيناً أفهم النظرة التي يوجهها إلى « الآخر » أعني في اللحظة التي أدرك فيها دلالة نظرتي . لا أستطيع أن أتأمل عينيه كأنني بصدد إدراك حسي لموضوع بعينه . بل كما يقول سارتر تجيء نظرة الشخص فتحجب عيني^(٢) . والواقع أنني لا أستطيع أن أتميز جمال أو قبح العينين المصوبتين إلى . في اللحظة التي أدرك فيها دلالة « النظرة » . بل قد لا أملك أن أتميز لون هاتين العينين . . . وإذن فإن ما ينظر إلى ليس هو هاتان العينان . بل هو « الآخر » l'autre من حيث هو ذات . ولهذا فإن نظرة الغير إلى كفيلة بإخفاء عينيه عن إدراكي الحسي . لأنني عندئذ أكون بصدد إدراك لتلك الذات التي تنظر إلى .

ولكن ما ذا عسى أن يكون موقعي من هذه الذات التي تنظر إلى ؟ أو بعبارة أخرى ما هي دلالة نظرتي بالنسبة إلى ؟ هنا نلاحظ أن هذه « النظرة » سرعان

(١) يتحدث سارتر عن « الوجود للآخرين » في فصل بأكمله من كتابه « الوجود والغدم » .

(٢) J.P. Sartre: "L'Être et le Néant", Gallimard, 1943, p. 316.

ما تردني إلى نفسي . إذ أشعر بأنني « مرئي » أي أنني « موضوع » يراه الآخرون (١) فبعد أن كنت مستغرقاً تقريباً في العالم الخارجي الذي أنامله . تجيء نظرة الغير فتردني إلى ذاتي . إذ تشعرني بأن « الآخر » يتأملني على نحو ما أبدو أمام ناظريه . . . والواقع أن نظرة الغير إلى من شأنها أن تشعرني بأن لي « طبيعة خارجية » يستطيع الآخرون أن يروها كما يرون سائر الأشياء . وهذا الشعور قد يقوى حيناً أنتبه إلى أن الآخر لا يراي إلا « من الخارج » فهو لا يستطيع أن يتف إلا على « المظهر » الذي أبدية . وهذا المظهر قد لا يكون معبراً عن حقيقة نفسي ! ففي « نظرة » الآخرين إنكار ضمنى لحقيقة الباطنة التي لا أملك أن أظهرها للآخرين . من حيث أنها ليست « شيئاً » يمكن أن أجسمه في « موضوع » خارجي .

والواقع أنني حيناً أشعر بأن « الغير » ينظر إلى . فسرعان ما أشعر بذاتي كموضوع مجهول يطلق عليه الآخرون أحكاماً مجهولة . وينسبون إليه من « القيم » ما تشاء لهم حريتهم . وليس من شك في أن « الغير » أحرار في الأحكام التي يكونونها بصددى . وتبعاً لذلك فإن شعوري بأنني « مرئي » (أو منظور) — regardé — من شأنه أن يترتب عليه شعوري في الوقت نفسه بأنني لا أملك دفاعاً أمام حرية الآخرين . لأن في وسعهم أن يطلقوا على ما يشاءون من الأحكام . فأنا بإزاء الغير « موضوع » يرونه ويصدرون عليه حكماً من أحكام القيمة . وليس في وسعي أن أغير من هذا الحكم على نحو ما أريد . بل قد لا أقف على أحكام الآخرين التي هي وليدة حريتهم (٢) . فأنا حيناً أشعر بأنني « مرئي » إنما أشعر بأنني لا أملك دفاعاً أمام حرية غريبة ليست بحريتي (أعني حرية الآخرين) . ولعل هذا هو ما عناه سارتر حيناً قال (في عبارة قد تبدو لأول وهلة متناقضة) : « إن في وسعنا أن نعد أنفسنا « عبيداً » (esclaves) — أي غير أحرار من حيث أننا « نبدو » أمام الآخرين » (٣)

R. Troisfontaines: "Le choix de J.P. Sartre, Aubier, 1945, p. 25. (١)

J.-P. Sartre : "L'Être et le Néant", p. 326. (٢)

(٣) نص العبارة باللغة الفرنسية هو كالآتي :

"Nous pouvons nous considérer comme des "esclaves" entant que nous apparaissions à autrui." (Ibid, p. 326)

ولكننا نعود فتساءل : ما هو موقفى حينما أشعر بأننى « موضوع » يتأمله الآخرون ؟ هنا يجيب سارتر فيقول : إن موقفى عندئذ ينحصر فى الشعور بالحجل la honte وقبل أن نعرض لدراسة هذا الشعور ، نسوق للقارئ مثلاً أورده سارتر لتحليل الموقف الذى نحن بصدده فتقول : هب أننى طمعاً فى مصلحة ، أو حباً فى الاستطلاع ، أو بمحض التعود . اقتربت من باب مغلق ، وأخذت أنظر خلال ثقب الباب ، لكى أقف على ما يدور داخل الغرفة بين جماعة من الناس . - فإذا يكون موقفى حينما أسمع فجأة وقع أقدام فى الطريق المؤدى إلى تلك الغرفة ؟ لا ريب أننى سرعان ما أنظر خلفى أو أتلفت حولى لكى أرى هل يقدم أحد أم لا . فإذا يكون شعورى إذا وجدت أحداً ينظر إلى ؟ لا شك أن هذه « النظرة » كفيّلة بأن تشعرنى بالحجل فى الحال ، إذ أشعر بأننى إزاء شخص يرانى ويحكم على ، كأنما هو بإزاء « موضوع » . والواقع أن نظرة هذا الشخص إلى ، من شأنها أن تشعرنى بوجودى فى موقف خاص بعينه ، وفى مكان معين بالذات . وتحجلى فى هذه الحالة هو اعتراف ضمئى بهذا الموقف الذى لا أملك أن أنكره فى اللحظة التى رآنى فيها الغير . ومعنى هذا أن نظرة الآخرين كفيّلة بأن تجعل منى موجوداً بعينه ، وهذا الموقف هو عين وجوده : وفضلاً عن ذلك فإن « نظرة » الغير هى تجعل « الموقف » يفلت من يدي ، فلا أعود مالكاً لزمانه كما كان شأنى قبل ظهور « الآخرين » فى المجال المعين الذى أوجد فيه . وهكذا يكون ظهور « الآخر » بمثابة قضاء على كثير من إمكانياتى فى الموقف الخاص الذى أنا بصدده . وليس فى وسعى بعد ظهور الآخر أن أتحكم فى الموقف كما لو كانت حريتى وحدها هى التى تملك التصرف : بل لا بد من أن أعمل حساباً لحرية الآخرين التى جاءت فأخرجت الموقف من نطاق حريتى الخاصة . وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول إن نظرة « الآخر » تجعلنى أتجمد فى مكافئ ، كأنى بإزاء خطر ، أو كأن لا سبيل إلى إصلاح الموقف الذى أصبح وجوده جزءاً لا يتجزأ من وجودى !

فالحجل إذن هو فى نظر سارتر عبارة عن شعورى بأننى مجرد موضوع أمام الآخرين . وأنا لا أكتشف ذاتى من حيث هى موضوع يوجد أمامى ، بل أولاً وبالذات من حيث هى أمام الآخرين . فأنا أكتشف ذاتى عن طريق

«الحجل» لأن الحجل هو الذى يشعرنى بأن وجودى هو بمثابة «طبيعة» *une nature* يراها الآخرون من الخارج . ومعنى هذا أن الحجل ليس إلا حجلاً من الذات «*hont de soi*» فهو اعتراف بأننى فعلاً ذلك الموضوع الذى يراه الآخرون ويحكمون عليه . ولما كان الحجل بمثابة إدراك للذات من حيث أن لها «خارجاً» *dehors* (إن صح هذا التعبير) ، فإن فى وسعنا أن نقول إنه عبارة عن اعتراف أو إقرار بأن لى طبيعة خارجية يراها الآخرون ولكنها لا تقع تحت حصرى : ولا سبيل لى إلى أن أقف عليها من حيث هى «طبيعة» (١) . وهذا الاعتراف يتضمن إقرار الذات بأنها عبارة عن موجود يتوقف وجوده على الآخرين ، وفى استطاعة الآخرين وحدهم أن يروها من حيث هى «موضوع» يشغل مكاناً بعينه ، ويوجد فى موقف خاص . فالحجل الذى يتحدث عنه سارتر هنا ليس وليد الشعور بأن الذات قد ارتكبت خطأ معيناً ، بل هو شعور عام يغمر الموجود الإنسانى حينما يشعر بأن قد قذف به فى هذا العالم ، وأن لا سبيل له إلى أن يفلت من نظرة الآخرين ، لأنه محتاج إلى وساطة الآخرين «لكى يكون ما هو كائنه» (على حد تعبير سارتر) (٢) . وهكذا انتهى إلى القول بأن الحجل إنما هو شعور أصلى يدرك معه الإنسان أن وجوده هو «فى الخارج» أعنى أنه فى عالم «الآخر» *l'autre* وهذا الآخر هو الذى يجعل منى مجرد موضوع كما سبق لنا القول ، فهو الأصل فى شعورى بالحجل .

ولكننا نريد الآن أن تناقش هذه النظرية لكى نقف على طبيعة ذلك الشعور الذى يسميه سارتر بالحجل . حقاً إن سارتر هو على حق حينما يقول إن الحجل هو عبارة عن شعورى بأننى «موضوع» أمام الآخرين ، ولكننا نعتقد أنه لا بد من أن نذهب فى التحليل إلى حد أبعد ، لكى نقف على طبيعة هذا الشعور . فإذا نلاحظ فى بداية الأمر ؟ لا شك أن الأصل فى هذا الشعور إنما هو تجربة معينة ، كأن أوجد مثلاً بإزاء شخص له سيطرة على ، أو أمام موجود معين أشعر بما له من نفوذ أو تأثير . أما إذا وجدت بإزاء رقيق يعامل معاملة العبيد ،

J.-P. Sartre : "L'Être et le Néant", 1943, p. 321-323. (١)

"... j'ai besoin de la médiation d'autrui pour être ce que je suis" (Ibid., p. 349). (٢)

فلا شك أنني في هذه الحالة لن أشعر بالخبيل حيناً أكون بإزائه . ولن يجدى في هذا الصدد أن يقال إن « الرقيق » هنا لا يمكن أن يعد بمثابة « آخر » . I autre : لأننا لا نفهم لماذا لا يجب أن نعده كآخر . ما دام في استطاعته أن ينظر إلى (١) . ففي نظرية سارتر إذن تعميم لا مبرر له . وقد يكون في الرجوع إلى التجربة ما يصحح من هذه النظرية التي لا تخلو من مغالاة .

أما إذا عاودنا النظر في طبيعة « النظرة » . فإننا نلاحظ أيضاً أن نظرة الآخرين من شأنها أن تشملني في نطاقها كما تشمل سائر الأشياء المحيطة بي . فالآخر يراني كما يرى الباب والحائط والجدران . . . إلخ . وحينما يظهر الآخر في مجال . فإن الأشياء سرعان ما تندرج في علمه . كأن ظهوره هو بمثابة انزلاق للعالم نحو « الآخر » (٢) . والواقع أنني حينما أكون بصدد منظر خارجي أتملأ . ثم يحىء آخر وينظر إلى . فإنني سرعان ما أشعر بأن هذا المنظر قد أخذ يبتعد عني . ويختفي من مجال . لكي يندرج في عالم « الآخر » الذي يراني كما يرى الأشياء . وهكذا تكون نظرة « الآخر » كقيلة بأن تجعل العالم يفتت من أمامي . لكي يتزلق نحو الآخرين !

وإذا كان « الآخر » هو أولاً وبالذات « ذلك الذي يراني » . فإن هذا لا يعنى أنه لا بد من أن أدرك العينين إدراكاً حسيّاً حتى أشعر بأنه يراني . بل إنني أعمل له حساباً حتى إذا كنت بمفردي . وهكذا قد يكفي أحياناً أن أشعر بحركة بسيطة خلني . أو أن أسمع وقع أقدام تقترب إلى . أو أن أقف على أثر بسيط يؤذن بوجود إنسان قد يظهر في أية لحظة لكي أعمل حساباً في الحال لذلك « الآخر » الذي يستطيع أن يراني . وفي المثال الذي سبق لنا ذكره . قد أتلفت خلني حينما أسمع حركة خفيفة . فلا أرى أحداً يقترب إلى . ومع ذلك فإنني ربما أقف عن مواصلة العمل الذي كنت بصددّه (وهو التطلع من خلال ثقب الباب) خشية أن يراني أحد . وفي هذه الحالة . تكون نظرة الغير (التي هي مجرد احتمال) كقيلة بأن تشعرني بالخوف أو الخشية la crainte . مما قد يحفزني إلى الانصراف عن متابعة العمل . ومعنى هذا أن « الخوف » هو كما

Gabriel Marcel : "Homo Viator", Aubier, 1944., p. 244-245. (١)

J.-P. Sartre : "L'Être et le Néant", 1943., p. 319. (٢)

يقول سارتر رد فعل لنظرة الغير (التي قد تكون مجرد احتمال) . وذلك لأننا نشعر بأن حرية الآخرين هي خطر يجب دائماً أن نعمل له حساباً .

ويضيف سارتر إلى « الحجل » و « الخوف » رد فعل آخر لنظرة الغير هو ما يمكن أن نسميه بالزهو « la lerté » والواقع أن الزهو هو شعور من جنس الشعور بالحجل . لأنني في كلتا الحالتين أشعر بأنني « موضوع » أمام الآخرين . ولكنني في حالة « الزهو » أحرص على أن أجعل من نفسي موضوعاً من شأنه أن « يؤثر » في الآخرين ! وهكذا أجعل من « الجمال » أو « القوة البدنية » أو غير ذلك كل وجودي . في سبيل أن أحوز إعجاب الغير أو تقديرهم . ففي « الزهو » إذن اعتراف بأنني يمكن أن أكون « موضوعاً » أمام الآخرين . لأنني حيناً أزهو بهذا الشيء أو ذاك . فلا بد لي أن أعمل على ألا أكون شيئاً آخر سوى هذا الشيء أو ذاك ! فأنا هنا « أعرض » نفسي على الآخرين كموضوع خاص بقصد أن يؤثر في الآخرين (١) .

يبد أن سارتر ينسى أن نظرة الغير ليس من شأنها دائماً أن تجعل مني مجرد موضوع . لأنه ليس من شك أننا حينما نكون بصدد « الحب » فهناك لا تكون نظرة الغير مجرد إحالة إلى موضوع . والواقع أن سارتر لم يستطع أن يقف على حقيقة الحب . لأنه لا يتحدث في كل ما كتبه عن « الحب » إلا عن ضرب من الامتلاك المادى هو عبارة عن سعى من أجل امتلاك حرية المحبوب من حيث هي حرية . وتبعاً لذلك فإنه يتحدث عن « الإغراء » la séduction الذى من شأنه أن يجعل من الحب مجرد « موضوع » ينظر إليه الآخر فينجذب إليه . وهكذا تجيء نظرة « الآخر » (وهو المحبوب l'aimé في هذه الحالة) فتكون مجرد استجابة لإغراء ذلك « الموضوع المغرى » objet fascinant الذى هو الحب ! ومعنى هذا أن الحب لا يعتمد على كشف « ذاته » أمام المحبوب . بل هو يضع نفسه تحت نظرتة . ويقدم نفسه إلى المحبوب كمجرد موضوع يجتذب نظره ! ولكننا نعتقد أن في هذه النظرية تعسفاً لا مبرر له . لأن « النظرة » قد تجيء من الطرفين معاً . فليس هناك مسوغ للتقول بأن « النظرة » تجيء من « المحبوب » فقط . هذا فضلاً عن أن الحب إنما يتولد فعلاً حينما لا تكون علاقتي بالآخر

مجرد علاقة بين « ذات » و « موضوع » بل بين « ذات » و « ذات » ! فالمحب
الذى يعرض نفسه أمام المحبوب (على حد تعبير سارتر) لا يريد أن يراه الآخر
كأنما هو موضوع يجتذب نظره (أى مجرد موضوع إغراء) بل هو يريد أن يتفقد
الآخر إلى صميم ذاته ، أعنى دأنه يريد أن ينكشف أمامه من حيث هو ذات .
وفي هذا المجال تكتسب « النظرة » أعمق دلالة إنسانية .

ذكرى إبراهيم بقطر

باريس